

مشكل الحداثة العربية والتحدي النقدي العربي

*The problem of Arab modernity and the Western critical challenge*د. بن عون طيب^{1*}¹ جامعة الجيلالي ليايس- سيدي بلعباس- الجزائر tayebbenoun92@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/05/05

تاريخ القبول: 2022/02/12

تاريخ الاستلام: 2021/10/24

ملخص: إن المحطات التي رسمت الاتجاه الخطي للفكر الغربي بدء من عصر التنوير، لعبت فيها الأيديولوجية دورا مهما في هذا الرسم القلبي المقنع، الذي ترافق مع مجالات الحداثة وما بعدها، وسرعة وتيرة التقدم الفكري والعلمي. وبين تلك الخطى والخطى العربية، تدور الحلقة الضائعة حول سير الحداثة العربية والتأسيس النقدي الغربي، وأمام الكثير من الأسباب لعل أبرزها الانقسام الفكري المعرفي العربي من اتجاه حداثي وآخر تراثي وبينهما حلقة مد وجزر لم تهتد إلى أي جانب. يهدف هذا البحث إلى الوقوف على أسباب هذه الهوة والنظر في مظاهرها، من أجل الوصول إلى حقيقة الجمود المحيط بالمجالات الفكرية والعلمية في المعسكر العربي.

الكلمات المفتاحية: الحداثة الهوة العلمانية المعرفة

Abstract. The stations that charted the linear direction of Western thought starting with the Age of Enlightenment, in which ideology played an important role in this convincing drawing, which accompanied the fields of modernity and its aftermath, and the rapid pace of intellectual and scientific progress. Arab and the Western critical establishment, and in front of many reasons, perhaps the most prominent of which is the Arab cognitive intellectual division from a modernist trend and another traditional, and between them there is a cycle of ebb and flow that has not led to any side. In the intellectual and scientific fields in the Arab camp. Keywords: modernity, knowledge, secular gap

*المؤلف المرسل

1. مقدمة

لعبت الأيديولوجية دورا مهما في توجيه المحطات التي رسمت الاتجاه الخطي للفكر الغربي بدء من عصر التنوير، هذا الرسم القلبي المقنع، الذي ترافق مع مجالات الحداثة وما بعدها، وسرعة وتيرة التقدم الفكري والعلمي، إذ تشكل منه عالما حداثيا فكرا وفلسفة، منظرًا ومؤطرًا لمنهجيات النقد الحركي، في المقابل عالم عربي مترامي الثقافات، يزرخ بتراث ثقيل أنهكته الخطوب، ما يزال عاجزا عن فك حلقات المنظومة النسقية التي تشتبك وتتداخل، وتنخ في هوة تزيد حلقاتها في التوسع بين عالم مبدع لا يني عن التفكير وآلياته في سير دائم، وبين عالم يجمد في استمرار، آلياته رابضة، ومحركاته

الفكرية متوقفة ومجالات رؤاه ضبابية. يهدف البحث إلى الوقوف على أسباب هذه الهوة والنظر في مظاهرها، من أجل الوصول إلى حقيقة الجمود المحيط بالمجالات الفكرية والعلمية في المعسكر العربي. في حوض المنهج الوصفي المناسب لوصف الظاهرة، ومقاربة مظاهرها بالتحليل والمقارنة. فهل شهد العالم العربي نهضة علمية وفكرية ترافقت مع الحداثة الغربية و ما بعدها أم هي مجرد جرعات معرفية يتلقاها من الغرب حتى يبقى على وعي في اتصال به؟.

2. الحداثة في المفهوم الاصطلاحي

يرتبط مصطلح الحداثة بالمفهوم الغربي، وترتبط مسيرتها بمحطات تاريخية سجلت ترسخ قيم، وتفسخ أخرى، إثبات مفاهيم، واقتلاع مبادئ نحو تأسيس فكر جذلي مادي، يسعى لتطويق التقليد وتحرير الجديد تحت إقامة بوصلة القلق وعدم التوقف، فساهم الأنثوريون في تحرير الأخلاق من سلطة الكنيسة وتقدم العلم، وطغى العقل وسادت فلسفة التحرر من عبق كل شيء. "حيث يمكن تحديد الحداثة كحركة متميزة من حيث ابتعادها القصدي، وتحديها الدائم للأشكال الأكثر تقليدية في الفن والفكر، إلا أنها تتميز... من حيث تنوعها الداخلي الهائل في المناهل والتوجهات، هي حركة قلق لا يقر لها قرار... تعرف غالباً بما تعلن القطيعة معه أكثر مما تعرف بما تتوجه إليه على نحو بسيط..."¹.

إنها الانتقال من العلمانية الجزئية؛ فصل المجال الدنيوي عن الديني إلى العلمانية الشاملة وهي رؤية واحدة تدور في إطار المرجعية المادية، تأزر إلى فتح الطابو والتأسيس له، ليصير مألوفاً ثم يذاع كقيمة أو مبدأ، يساعد في ذلك مجال الإعلام القوى كسلطة إخبارية دعائية. إنه العالم الغربي بكل قواه، يؤسس مناهج ويكوّن تنظيمات أدبية فكرية ونوادي علمية ابتكارية، يستغل كل الطاقات المادية والمعنوية في سبيل إظهار التفوق والغلبة، وإجبار باقي الشعوب على الانكسار أمامه والعمل على خدمته وإمداده بما يحتاجه.

3. الحداثة والمادية العلمية

تجسد الحداثة والعلمية حلقة من عقد دائري، تتولد حوله مجموعة مصطلحات غرست كمناطق عزل أو قطيعة مع كل ما هو تقليدي، روحاني، مثالي. فكانت العلمانية الشاملة والواحدة والتجاوز، جسدت كلها تياراً جارفاً ليحيط بالإنسان ومبادئه وقيم حياته، والنظر في إعادة التوجه الجديد لمسار الحياة. فبالنسبة للحداثة لاشيء مقدس، ولا شيء محرم، فكل شيء متاح لها "لا شيء ينجو من دراسة العلم وتحليل العلم والفن والتقنية. كل الحضارات البشرية السابقة كانت لها محرمات (طابو) ما عدا حداثة الغرب إنها لا تعترف بأية محرمات."² لعل هذا الاعتراف بالمحرمات يحيلنا إلى علاقة العلمانية الشاملة بالواحدية "فكلاهما يدور في إطار المرجعية المادية الكامنة، ترد الكون بأسره إلى مبدأ واحد كامن فيه. وعليه فلا نجد فرقاً بين الإنسان والطبيعة، بل هما مادة

واحدة لا قداسة لها، يخضعان للقانون الطبيعي ومن ثم يمكن إخضاعهما للمقاييس الكمية الرياضية دون الرجوع إلى أي قيم ما معرفية أو أخلاقية. فالطبيعة في تصور الماديين هي نظام يتحرك بلا هدف أو غاية ،نظام واحد مغلق مكتف بذاته توجد مقومات حياته وحركته داخله، يحوي داخله ما يلزم لفهمه..." بينما الواحدة أو المبدأ الواحد "قوانين الطبيعة ،القوانين العلمية أو القوانين المادية أو قوانين الحركة، هذا القانون بدون إله شامل يمكن تفسير كل الظواهر ومن بينها الظاهرة الإنسانية من خلاله."3

لقد استحكمت المادية في بناء الصرح المعرفي الغربي الجديد، ولاسيما النقد الأدبي خاصة ضمن حركية التغيير التي شملت كل مجالات المعرفة، و في إطار الجدلية التي لامست العقل. ولعل نقطة التعبير تمحورت حول الإنسان، كون هذا القانون (الطبيعي/ الواحدة) هو الذي صار يملك مفاتيح هذا التغيير، والسير العقلي بواسطة الكشف و الدراسة و التمحيص، فهو مادي محض يحكمه المنطق العقلي غي المحدود.

لا شك في ذلك إذا كانت الحداثة تصب في هذا المنظار "فهي رؤيا ثورية تقتحم السائد في عقرداره - اللغوية الفكرية- الاجتماعية- لتعبر عن اللغة الجديدة، والتجربة الجديدة، و الأفق الإنساني الجديد"4 يؤكد غالي شكري أن هذه الرؤيا الثورية أوجدت أحداثا متعددة بتعدد حقول البحث في الأنثروبولوجيا واللسانيات ،و تتعدد أحيانا أخرى بسبب الموقع الحضاري الأصلي ، الفلسفة وعلم الاجتماع .وعليه لم تكن الجراحات التطبيقية في ميدان الأدب من عدم، ولم تكن اجتهادات عامة، ولكنها تصورات ممنهجة أخضعت الأدب للمجال العلمي فكانت تيارات اللغة والنقد كلها تلامسه حتى وضعته بين دفتي الكتابة والقراءة .

تبدأ الحداثة الحقيقية عندما يزول الاعتقاد، أن لا وسيط وأن كل اتصال هو إحقاق ؛ فالوساطة هي أنه لا يوجد وساطة، لا يوجد سوى قطيعة ،وقلب للمفاهيم واعتماد الجانب السلبي منها، فكل صفة حاملة لضدها، وكل فضيلة موردة لنقيضها."أن تكون حداثي يمكن أن يعنيه بالنسبة لبارث أن تكون أنيا"5 لك معاصرين تكلمهم، تقاسمهم مآسي الحاضر، أن تكون حاضرا في المعاصرة هو أن تكتب عنها ،لأنها هي دائما اكتشاف و جدة" إنها تعني حرفيا أن يكون المرء مع الزمن الذي يعيش فيه."6

يعزى المشكل في الإبداع إلى الجانب التنظيري الذي تمتطيه الحداثة وما بعدها، والذي يُمنهج ويفرع التوجهات العقلية أو الاستهامية حيث صار المخيال صنو لهما. فالخيالي fictif أصبح ملهما للمستقبل العلمي كما هو الحال للتوجه النقدي عند الغرب "فكون التنظير هو الرحي لحداثتنا المعاصرة، في ضوئه يمارس الشرح ويحد النص، وترسم أدبية الإبداع و...وغياب منهاج في النقد لدى النقاد العرب المعاصرين، لأن المنهج هو رسول الفلسفة إلى الأدب... ولأن المشكلة كامنة أصلا في الحاجز النظري الذي لا سبيل إلى اختراعه، طالما بقي مستوانا الحضاري على ما هو عليه"7. يحيل إلى

الرسوبات المتوالية على مختلف مجالات الحياة التي كانت السبب الرئيس في التخلف، وما عدا النهوض بالمجال الأدبي، لا تزال المجالات الأخرى باقية على رسوبها.

3. الحداثة العربية ومعوقات التأسيس النقدي العربي

3. 1 التبعية الثقافية

صنع الغرب بطرقه الخاصة هوة ضائعة ، لعل أبرزها تدابيرها الثقافية والتي شملت الجانبين السلوكي والمعرفي منها، فالسلوكي الذي جاء بعد مدة من خروجه ، وتدرجت أساليبه المختلفة إلى أن وصلت إلى ما يسمى بعمولة الأخلاق والمبادئ ، و صار الوطن العربي سابحا في وعاء هذه العمولة إلا بعض الاستثناءات. وأما الجانب المعرفي منها، فقد صار للغرب مخابر أدبية نقدية في الجامعات العربية تهتم باستهلاك منتجاته الأدبية والفكرية أولا، ثم محاولة إسقاط تنظيراته على بعض المنتجات الأدبية العربية قديمها وحديثها في مجال القصة والرواية، ثم في الأخير محاولة إظهار عدم تقبل بعض الآراء النقدية التي تمت بصلة خاصة إلى المبادئ الأدبية الغربية. ولا تخدم الأدب العربي ولا توجهاته المزعومة. هي الحلقة نفسها إثر ما يسمى عصر النهضة العربية مع حركة إحياء التراث، ثم مرحلة التقليد ثم مرحلة التأليف وليس التنظير.

3. 2. الافتقاد إلى التأصيل الفكري والخصوصي

يعد الجدير بإرساء حداثة نرجوها نحن ونقلها و نأقلمها بدافع الخصوصية، وليس بدافع الإغراب أو التغريب أو الانتحار في موات المقولات⁸. إن الاصطلاح على المراجع المكتوبة حول الحداثة، وبغض النظر عن تساوقها مع الآراء الغربية أو اختلافها، وتناقضها مع الآراء العربية فيما بينها أو انسجامها. قد اتفقت تقريبا على مكان الجرح والشرح والعجز، إنه الفراغ الفكري العربي والتأصيل القوي للتنظير في غياب فلسفة خاصة، يبقى الإشكال مطروحا والأقلام مختلفة النزعات متفرقة ، و الفكر مشّت والمخابر وسمات للتشدق، والبحث في احتضار، والجدية مضطربة أو مبعثرة ولا يوجد حلقة فكر عربية أدبية ونقدية تستوعب كل هذا الشتات ومحاولة جبره. ويبقى الأدب والنقد يسيران مع مدّ التنظير الفكري الغربي وجزر إسقاطه على المنتج العربي الذي لا زال يسير موزا الكتابة الغربية.

لقد ارتبطت هذه الكتابة الموازية بفعل الاحتكاك القوي بالفكر الغربي إلى درجة الانهيار والمحاكاة الكاملة بدعوى قوة الكتابة في إتباع قوة الحضارة ومسايرتها ، في حين أطلق عليها البعض عصارة النهضة الأدبية التي نفضت عنها غبار الماضي وغشاوة التخلف ، فجرت الأقلام حسب ما يمليه الظرف الثقافي والجو السياسي ، و ضرورة وضع طروحات فكرية أدبية نقدية ، تتجاوز مع الحاجة الماسة للتواصل مع الغرب ، لكن في حقيقة الأمر لم تكن هذه النهضة كما قال ميخائيل نعيمة عنها " سوى نفحة هبت على بعض شعرائنا وكتابتنا من حدائق الآداب الغربية ، فدبت في مخيلاتهم وقرائهم

كما تدب العافية في أعضاء المريض بعد إبلال له من سقم طويل الذي ألمّ بلغتنا أجيالا متتالية ، كان شللا أوقف فيها حركة الحياة وجعلها جيفة تتغذى عليها أقلام الزعانف المستبعدة وقرائح النظّامين والمقلدين "9 .

3.3 غياب أرضية فلسفية أدبية ونقدية خاصة

لعلها أبرز المعوقات في هذا التأسيس ، ، بمعنى كل التوجهات المختلفة في مجالات الثقافة والأدب والنقد والاجتماع والسياسة ، لا تقوم على اختلافها على تأصيل قاعدة انطلاق ، وزاوية رؤية جماعية تؤهل وتمحص وتؤسس ، بالموازاة مع ما هو موجود في التراث وما هو حاضر من مواهب فكرية ونقدية وكتابية ، هذا من جانب؛ أما الجانب الآخر فقد تولى بعض من النخب العربية حمل مشاغل التحديث والتهوض بها، منطلقين من نفص الغبار عن التراث وإعادة تقييمه ، فكانت المعادلة من اتجاهين :

- الاتجاه الأول: وهو اقتراح محو الماضي والاستفادة مما خلفه المستعمر من بعض البنى، ومواصلة السير على المنهج الغربي. أو تقييم التراث والانطلاق منه مع الاستفادة من المنظومة الفكرية الغربية ، لكن المفارقة كانت في تقويم التراث من خلال مقارنته مع المنتج الغربي على غرار ما قامت به جماعة الديوان.

-الاتجاه الثاني: الذي سعى إلى تأسيس منهج فكري فلسفي ، وفض الخلاف ربما كان في تمثيل محمد أركون من خلال سؤاله " من أين نبدأ ؟ من الإسلام أم من الحداثة ؟ كان جوابه، سوف نبدأ من الحداثة لأننا منغمسون فيها ماديا استهلاكيًا ، فكريا ، عقليا...أو هي الحداثة موقف للروح أمام كل المناهج التي يستخدمها العقل للتوصل إلى معرفة ملموسة للواقع.."10 .

إن إلغاء المبدأ الأول يتفق مع الانفتاح على كل ما هو مغاير، بمعنى فتح الأبواب للحداثة ، وإن لم تفتح فستكسر ، وبالتالي فإن تيارها الهياج والثوري لن يقف ، ولن يوقف ، ومن ثم يتفق كل من غالي شكري في تعريفه للحداثة " إنها رؤيا ثورية تقتحم السائد في عصر داره - اللغوية الفكرية الاجتماعية - لتعبر عن اللغة الجديدة والتجربة الجديدة والأفق الإنساني الجديد " 11 و محمد سبيلا في تعريفه لها بأنها " حادثة عنيفة ، في طريقة حلها وحصولها ، وفي الفعل التفكيكي الذي تمارسه على كل البنات الاجتماعية والفكرية والتقليدية ، محدثة شروخا في الواقع ، وفي الوعي والذاكرة واللغة والخيال وطرق الإدراك "12 إنها تدمير شامل للبنى التحتية بخصوصيتها ، والفوقية بتميزها ، لتغرس غرسا مخالفا ينمو نحو اتجاهين : إما تبعية دائمة وإما تخلف مقيم . وفي كلٍ ضرر ، لكن التعارض الذي يبديه البعض أن الصرح الحضاري عالي - بمعنى - شاركت فيه جميع شعوب العالم على اختلاف مشاربها ، وأن ما وصل إليه الغرب منه ما هو إسلامي عربي وغيره. لكن أين الفرق ؟ ربما يكمن في التوجه التقويضي العربي الذي يحرر الفرد من رقة التقليد ومن ثقل الماضي ويمنحه حرية الاختيار ، وحرية واسعة لا حدود لها إلى درجة تغيير جنسه أو انتحاره.

3. شروط العملية النقدية

أ- قوة التلقي والتحصيل العلمي

لا يختلف اثنان حول جدية القراءة وجدية الكتابة وضرورة التسلح بالمكاسب المعرفية والتعمق في الطروحات، سواء من منظور تراثي أو حداثي حتى تتم عملية النقد. بقوة التلقي وقوة الاعتراف ليس بالعجز، ولكن بصعوبة المكتوب الغربي في بعض جوانبه المفهومية لخصوصيته، ومن ثمّ تبدأ جدية الطرح المقابل ومناقشته بمشاركة جماعية.

ب- الجهد جماعي

بحيث تتعدد جيوبه المعرفية وتختلف وآفاقه وقد سعى نقادنا جاهدين نحو محاولة إثبات ما طرح من قضايا نقدية غربية، على أنه مطروح في التراث العربي القديم، لم يُختلف في الطرح، ولكن الاختلاف تم في معالجة القضايا وتوسيعها والتأصيل لها، فما ثبت في التراث من تجليات وعموميات تصب كلها في النقد المعاصر، إن المتصفح للزخم الهائل للكتابة في مجالات المعرفة والنقد، يبقى مشدوها أمامها متسائلا وهو يمسح الواقع الأدبي والعلمي وأما المفارقة بينهما فلا تقدم فكري وعلمي (نحو بناء فوق)، ولا ملامسة للتطور التحي الذي يعكس ذلك الجهد المبذول .

3.5 علاقة المفكر بمجتمعه :

جعلت العلاقة المشوشة بين المفكر ومجتمعه هذا الجهد منتورا، فلا قرابة خصوصية بينهما ولا تمثيل أحدهما للآخر، فبينما يبقى المجتمع تحت رزية التخلف، يعيش المفكر والناقد رفعة زائدة على مستواه فتفصلهما عنه ، إضافة إلى الانقسامات الأيدلوجية والضيقة التي لم يتخلص منها مفكرون والتي تمزقهم وتبعدهم عن حقيقة المشروع الحداثي الذي يطمحون إليه، خاصة الفئة المنهرة والمتفردة ضنا منها بثقافة مميزة ومتفوقة، وهكذا بدا عبد المالك مرتاض مجليا لمفهوم الحداثة التي انخدع بها هؤلاء " فاعتقدوا أن هذه الحداثة سرّ الله في الأرض، وحكمته في الكون، وعنايته في البشر، وهبته للعقول، فتهافتوا عليها، في كثير منهم تهافت الفراش على المصباح، فهم بين محترق، وبين موشك على الاحتراق"13.

فبين المحترق والموشك على الاحتراق بقي المجتمع العربي بين الاحتراقين ينشد خلاصا معرفيا ، وخروجا مهيبا بما يحمله من مقومات فكرية وحضارية تؤهله لحمل الدورة الموالية لمشعل القيادة الفكرية العالمية، لكن تخاذل النخبة وما يحيط بعضها من مركب النقص والقصور والشعور بالعجز أمام الإنسان الغربي، أبقي الثورات التحريرية على بدائيتها، وانغمس المجتمع العربي في قشور الثقافات الغربية و سلوكاتها ،وبدت القابلية للاستهلاك المطلق "...في الوقت الراهن وفي حدود ما نعلم من سلوكنا المستخزي بشيء مما يشبه الذل، لسنا في موقع العطاء...نستهلك بشره ولذاذة فقط ولعلنا أن نريد أن نعطي لما يثقلنا من مركبات النقص التي لا تفتأ توهمنّا بأننا قصر عن العطاء"14. هذا العطاء المعرفي في مجال الكتابة الأدبية ، يبدو غزيرا على مستوى الرواية ، التي وإن تتبععت

الأثر التنظيري الغربي إلا أنها كانت تجسيدا له ،وعمليا كانت أكثر اكتراثا بما قدمه النقد الغربي في مجال السرد وما هال به من قواعد وقوانين للحكي .

3.6. الانقسام الفكري العربي

لم يخرج النقد العربي في غالبه عن الأطروحات النقدية الغربية، في مجال النقد والإبداع والحكي والصوت المجهول، إضافة إلى تجسيد الفكر المتعارض بين المفكرين العرب والنقاد. ولم يتوان هؤلاء وهؤلاء عن المقارنة في مجال العطاء بين التراث النقدي واجتهادات بعض المنظرين القدامى ،و بين الجدل المتواصل بين الانفتاح والانزواء أو التمدد بينهما كضفيريّين لا غنى عنهما .وكل فريق أسأل الكثير من الحبر إلى درجة العجز عن الإحاطة به. ففي مجال الطرح الفكري التشخيصي ، نجد على سبيل المثال محمود أمين العالم ومحمد شرابي ومحمد الكبسي ، يعللون الانقسام الفكري إلى: أصولي و حدائي ، وإصلاحي الذي يتموضع بينهما كل حسب منظوره. " فمحمود أمين العالم رصد أربع تيارات في الحركة الحداثيّة:

أ- الحداثة اللبرالية : وهي حركة تنويرية على الطريقة الغربية وهي الحركة السائدة على رأيه وضمت كوكبة من الكتاب والنقاد ،بدءا من رفاعة الطهطاوي ،خير الدين التونسي ،أحمد أمين ،طه حسين ،أحمد زكي نجيب محمود .وهؤلاء من أكثر رواد جنس المقال الأدبي ومع ذلك لم تنجح الحركة في تحديث المجتمع فكريا ومعرفيا واجتماعيا.

ب- لحداثة الدينية : تمثلت في المدرسة السلفية الرائدة في مجال الاجتهاد وروادها محمد عبده جمال الدين الأفغاني ،والنوبهي وحسن حنفي ...حاولوا التوفيق بين التراث والعصر، مع التميّز عن الحضارة العربية .

ج-الحداثة القومية: التي نزلت إلى الميدان السياسي والاجتماعي،ومحاولة تحسين أوضاع الشعوب عن طريق القيادات التاريخية،ومثلتها المرحلة الناصرية ومن روادها البستاني،الكواكي ،أرسلان عفلق،صلاح بيطار..لكن الملفت أن هذه الحداثات الثلاث لم يفصل بينها زمن تاريخي عميق.

د- الحداثة الثقافية : والتي تدعو إلى الاندماج في هذه الحضارة ،مع مراعاة الخصائص الذاتية ، امتدت من شلبي وفرح أنطوان إلى الجابري،و أدونيس وفؤاد زكريا ولويس عوض وبرهان غليون .¹⁵ ثم كان النقد لهذه الحركات الحداثيّة من حيث التقويم ،وتبيين أسباب الفشل في تحديث المجتمعات العربية ،فكان أهم نقطة شكلت محور هذا الفشل هو التعامل بانهار مع الحضارة الغربية ،ولعل ذلك يعود إلى فارق الزمن الحضاري ،فمند عصر الضعف تمّ اجتياح الغرب لهذا الوطن اجتياحا فكريا ؛ فالسلاح الغربي كان سلاحا علميا وفكريا وثقافيا قويا ،جسده بنية عقلية مرنة لا تؤمن بالثبات ،وأعطت ثمارها على مستوى البنية التحتية ، وقد شكلت هذه البنية تمازج الشعوب (أوروبا الشرقية والغربية)، و الآسيوية منطقة أكثر استقرارا وتنوعا معرفيا هي الولايات المتحدة الأمريكية، فكانت بمثابة البحر الذي تصب فيه الجداول،وكان هذا البحر مصدر التزود الفكري الحر

والفلسفي المجرد والعقل المتوقد، في المقابل بقى الوطن العربي على صورته، فمن جهة كافح لمدة طويلة للتخلص من برائن هذا الوحش الغربي، ومن جهة أخرى كان على امتداد هذه الفترة خارج الزمن الحضاري. وبعد الخلاص المشوه عجز عن التخلص من مثالب السلطة الشرعية، وعلق في خيوط مشاكله المتعددة. ومن ثم باءت كل الحركات الإصلاحية بالفشل " لأنها اعتبرت الغرب دخيلا، فرفضت أن تغترب فيه، لتغترب في مساحة معرفية من الماضي، ثم تنتقل أو تنقل مرة أخرى تلك المعرفة لتجعلها بدورها تغترب في الحاضر".¹⁶

لعل من النقط الأخرى عدم التعرض للنقد الحر، والخضوع للتساؤل وعدم مواكبة المعرفة في سيرها وتقلباتها وتجدها في رصد للمواقع الأدبية والنوادي العلمية، والمجالس الفقهية والدور القانونية بشكل أكثر صرامة وتنظيما، ولذلك بقيت كثير من الدراسات المعرفية الثمينة والجديدة خارج آنيها إلى أن تُتناول بالدراسة لكن بعد تحولها إلى تراث ماضي، ولعل من أبرز المشاريع التي طرحت في مجال الإصلاح ما أثاره هشام شرابي يرى أنه "يجب التشديد على أن حركة الانبعاث الديني التي قادها الأفغاني ومحمد عبده لم تضع العقيدة موضع تساؤل، ... وكان هدف الإصلاح حماية المجتمع الإسلامي بالاستجابة للتحدي الغربي بطريقة إيجابية لذلك كافح لإعادة تأسيس الحقيقة الإسلامية وتقويمها من دون تعريضها للنقد الحر".¹⁷

إن الطرح الذي شغل شرابي قد يكون نابعا من واقع اجتماعي لم تتضح فيه الرؤية الصحيحة للإسلام على مستوى سلوكيات الفرد، وتوجهات السلطة على السواء. ولعل محمد عبده لم يغفل عن الطرح الذي رآه هشام شرابي، ولكن الظروف التي أحيطت بالمجتمع العربي آنذاك، كانت تستدعي الإنقاذ العاجل لخصوصية المجتمع بما فيها دينه الإسلامي، وعليه فالتساؤل والشك لم يكن غائبا، ولكنه يحصر في الفئة النخبوية لتديره بآليات نقدية حديثة، حتى تستوحي منه الإطار المعرفي لاستخلاص الحقيقة ضمن ثوابت معرفية تمحيضية، تعالج بها علاقة التحدي الرابطة بين المجتمع والسلطة والمستعمر.

وإلا كيف يفسر هذا الانهزام والفشل العربي؟، في حين أن مجتمعات أقل كفاءة وقدرة وقوة مقارنة مع مجتمعات الوطن العربي، خطت خطوات جريئة ومتقدمة ولم تعلق في زبد الفكر وعلائقه؟ لقد كان مشروع مالك بن نبي ومحمد الجابري من أكثر المشاريع صمودا نابعا من قراءة جديدة للتراث العربي الإسلامي، وقراءة واعية للقرآن إلى درجة أن المشروع لم يرتبط ببيئة بشرية واحدة، بل مشروعا إنسانيا استفادت منه تلك الدول التي تقدمت خطوات واسعة "إن هذا المشروع (مالك بن نبي) على أهميته لم يتعرف عليه العرب إلا بعد أن أصبح تراثا، وبعد أن ترجم إلى اللغة العربية ومن هنا كان التعامل معه تعاملًا ماضويا... ومشروع الجابري الذي أبدى رؤية أكثر نجاعة فقد حلل العقلية العربية تحليلا علميا، وقدم قراءة حدائية، من دون إهمال خصائص التراث العربي الإسلامي وكان مكملًا لبقية المشاريع الأخرى لكن بقي الطرح في شكله الماضوي".¹⁸

لقد رأى علي حرب أن الإشكال هو "...في آلية القياس نفسها، قياس الغائب (العقل العربي) على الشاهد (العقل الغربي) فنفكر بالتالي حسب الطريقة التي نفتقدها ونعترض عليها، أي التفكير على مثال سبق"19 على المستوى النقدي الأدبي لم يخرج المؤلفون عن هذه الحلقة وغضاظتها، فأمام السيل العارم للقصص والراويات والرؤى المختلفة الميثوثة من التراث ومن الحداثة وما بعدها، لم ترس الكتابة على منابر نقدية تفرز المساءلات والتحوللات، وتنظر للمفكر فيه و اللامفكر فيه، فيين الغدامي الذي رأى في الأدب الجَمَل البازل من خلال قول الفرزدق "...ولنا ضمير مفتوح لنا كلنا، نعيش نقتات على بقايا الجَمَل المذبوح في الزمن الأول القديم، إننا نعيش على الفضلات من جهة...والأولون لم يتركوا لنا شيئاً"20. وبين عبد المالك مرتاض الذي قرر "أن اللامنهج في تشريح النص الأدبي هو المنهج"21 إنه المنعى الحدائي الذي يعتقد "أن المجتمع العربي على مستوى المادة . الجوهر. لم يعرف الثورة الحضارية الشاملة"22.

أمام غياب هذه الثورة الحضارية، يتواصل الغرب في التحرك، وتتواصل العملية الفكرية في الحركية، ويدخل المجتمع العربي بفشله وبدائيته عالم العولة، عولة الثقافة بجانبها المعرفي والسلوكي، وعولة الأخلاق والمبادئ وعولة اللذة الحسية " فإذا كانت عالمية العلم فكرة صحيحة، لكن دون أن تصبح فعل إلغاء لمقومات الفكر القومي وعملية مسح للأنا الحضارية...."23 فما هي سبل تجنب المسخ والمسح والغسل والأنا فاقدة ليس لحضارتها (و هو هدف العولة)، ولكن لذاتها ومجردة من كل تحصين خاص وخصوصي .

4. ضرورة التواءم بين الدين والعلم:

إذا كانت الحداثة الغربية بكل تحولاتها المعرفية والفكرية والأخلاقية، انطلقت من الواحدية والقوانين التي تحكم الموجود قد سارعت إلى السقوط في الهوة، وصارت محاصرة في حلقة فكرية ضيقة، فإن إمكاناتها وقدرتها التفكيرية الحركية حري أن تعيد انتشالها من هذه الحلقة الضيقة وهذا ثابت في كثير من الدعاوى "إلى ضرورة تطوير حداثة لا تفصل بالضرورة بين سيادة العقل والفكر العلمي وبين الدين " 24 . إن الفرص في انبعاث الحضارات موجودة على امتداد هذا الكون، لكن بالنظر إلى المسافة الحضارية الغربية التي يبدو نشأتها منذ ثلاثة قرون إذ سمك صرحها قوي بحيث لا يمكن تفادي الانهيار، ولا الانجرار وراء التمسك بهذا الانجاز.

في المقابل إذا أُمعن النظر في المسافة الحضارية للعرب والمسلمين على عهدهم، فمستوى سمك صرحها كان أقوى بكثير، لكنها الحياة والحضارة مشعل تناقله المجتمعات مثلما تناقل الدول المستقبلية للألعاب الأولمبية المؤهلة لحمل ولعب هذا الدور . " في الحقيقة إن الفكر الغربي لم يفتأ منذ الأزمنة الغابرة، أي منذ البداية اليونانية عن الرجوع إلى تلك البداية، وإعادة النظر بها وتأملها

من جديد ، سواء كان ذلك امتدادا أو تطويرا أو تعديلا وتغييرا أو نقدا ونقضا ، فإنه من الملاحظ أن كل الأعمال الفلسفية الكبرى والتي هي أعمال تحليلية برهانية ، إنما هي عود على بدء ورجوع إلى الأصل ، أو استئناف أصيل للأصل نفسه على حد هايدغر "25 . إن الحركية التي يتمتع بها الفكر الغربي لم تقف على الجديد ولم تعف عن معالم ماضيه ، ولم تتجرأ على تراثها إلا في ميدان التنقيب العلمي ، وهاهم وكأنهم يلغوا المساحة الحضارية بين هذا العهد وذلك العهد ، متغاضين عن الدور الذي لعبته الأمم السابقة عنهم في مجال العلوم والفكر .

ولعل معالم الحضارة العربية الإسلامية قد وسمت بصماتها على الحضارة الغربية ، فقد كانت محيطة بحدودها المادية ومتسللة داخلها بتعاليمها وعلمها . إذ بعد صدر الإسلام يتضح أن نقل العلوم والآداب غير المعروفة سابقا عند العرب ، قد نقلت من المسلمين غير العرب ، وما تم معرفته منها فيما بعد سواء عربي أو غير عربي ، كانت بدايته يونانية أيضا بحكم القوة الحضارية المميزة لها ، فكان الانكباب نابع من منطلق ديني إسلامي ، الذي جاء ليفرض العلم والاستنارة ومعرفة القوانين التي يسير عليها الوجود ، فكانت الترجمة والبحث والتنقيب والتوظيف والنقد والنقض وإعادة الطرح ، وتوسيع المجال على مستوى كل المعارف ، حتى على مستوى اللذة الحسية والمعنوية .

ولكن الحلقة الحضارية استكملت حلقاتها وانتقلت إلى عالم أوروبا ، فالمشكل المطروح على المستوى العربي هل هو جدي أم مفتعل ، ؟ إن ما يزخر به التراث العربي الإسلامي من مقومات فكرية وأدبية ليس أقل أهمية من ما جاء به الغرب ، وما جاء به الغرب هو عملية تغيير وتطوير للمفاهيم ، وهي نفسها المنبعثة من الفكر اليوناني ، وقد درج العرب القدامى هذا الميدان في الجانب اللغوي والسردى والجمالي والبلاغي ، ولهم نظر ورؤى جانبت كثيرا من التوافق مع الرؤى الغربية الحديثة . وقد كانت أعمال عبد القاهر الجرجاني علمية لا تقل علمية عن المنهج البنيوي فالإشكال المطروح يتجسد في إشكالية الوعي والفهم والتحرر من العوائق العرقية ، وقد تم الإشارة إلى الجداول المعرفية التي تصب في بحر أمريكا ، وكانت في الماضي الجداول نفسها تصب في نحو الحضارة الإسلامية ، فالصراع بين العودة إلى التراث والارتقاء في الحداثة الغربية ، بين أصولية متخلفة وحداثة تقدمية ، ينم عن تخلف البنية المعرفية عند كثير من المفكرين والكتاب العرب ، وإن لم يكن تخلفا فهو تغافلا يخدم مصلحة ما .

إن الحديث عن الفكر والعقل وليس عن سواههما ، ينبئنا في الأصل عن دور فكري علمي رائد يكون جديا في الطرح والمساءلة من أجل تغيير نحو الأفضل ، وليس انتكاسا نحو الوراء وتبني لغط فكري بحجة الرجعية أو التغريبية ، " فلا بد من الجادين المتميزين من نقادنا تحقيق هذا الدور - يعودون إلى التراث ليلقوا الضوء على كنوزه ويضعوا أيديهم على أفضل انجازاته .. "26 . ويكون بالمثل في مقابل الحركة الحداثية ، وإذا ما تم ذلك يكون بالإمكان وضع مشروع مسار نقدي يلتقي فيه

الجيد من القديم والجديد وتتوالى عملية البناء الفكري والنقدي وليس ذلك بعزيز. لكن الاختلافات والتعصب لكل تيار، جعل المشروع يجمد إن لم نقل يفشل.

5. خاتمة.

إن ما يرجى من هذا البحث هو توقف منشود وترصد مأمول له ،لانبعاث جديد من حيث تحريك مقومات هذه الأمة من فكر ونقد ومن ثمّ التأسيس لنهضة عربية قوية.ولعل من أهم النقاط التي تتبعها البحث:

- أن المنتج الفكري والعلمي مشترك بشري تساهم في ه جميع الأمم ضعيفها وقويها .
 - أن مشاغل الحضارة والنهضة متداولة ولكل أمة نصيب منها.
 - أن التواصل الغربي العربي في مجال النقد والمعرفة قوي لكنه مازال على وجه الإلزام.
 - أن التشويش التغريبي على مستوى البحث مسطر له حتى لا تكون هناك انفلاتة.
 - أن أكثر جهود أعلام النقد والمعرفة في الوطن العربي هي فردية .
- قد تبدو للناظر هذه النقاط هشة أمام المقاربة التشخيصية للحلقة الضائعة،ولكنها مثل الرماد الخامد الذي ينصهر تحته لهب ينتظر من يقلبه، هذا اللهب قد يكون عافية ونهضة قوية وقد يكون احتراق حقيقي حسب عبد المالك مرتاض.وبين الاحتراقين إما همة وثبات وإما غمة وضياع.

هوامش المقال

- 1- رايوند ويليام / طرائق الحداثة ضد المتوائمين الجدد / تر فاروق عبد القادر -المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب -الكويت 1999. ص 68 .
- 2 - عادل عبد المهدي ،إشكالية الإسلام والحداثة ،دار الهدى للنشر والتوزيع ط1/2001، ص 05 .
- 3- المسيري عبد الوهاب -دراسات معرفية في الحداثة الغربية / مكتبة الشروق الدولية- القاهرة ط1 2006 -ص15/16
- 4 - ريان أمجد ، غالي شكري بين الحداثة وما بعد الحداثة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،ص 102 .
- 5- Marty Eric .R Barthes , le métier d écrire ,edition du seuil 1991 p 141.
- 6-عادل العامل ، الابتكار و المعاصرة ،منشورات وزارة الثقافة السورية ،ط1/2004 م،ص 73 .
- 7-عبد السلام المسدي - النقد والحداثة -دار العهد الجديد -تونس ط2 1989 ص19
- 8- أمجد ريان - غالي شكري بين الحداثة وما بعد الحداثة -ص 06
- 9- ينظر محمد بنيس حادثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة ،المركز الثقافي العربي ط2/1998م ص 117 .
- 10- ينظر عبد العزيز حمودة ،المرايا المقعرة ، نحو نظرية نقية عربية ،سلسلة عالم المعرفة العدد 272 ،المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب،الكويت 2001 ص 33/34 .
- 11- محمود نسيم - فجوة الحداثة العربية - دار الحريري للطباعة - 2005 ص 154/155.
- 12- أمجد ريان - غالي شكري بين الحداثة و ما بعد الحداثة ص102 .
- 13- سبيلا محمد ، مخاضات ، دار الهدى ، بغداد ط1/2007 م ص 250/251 .

- 14- عبد المالك مرتاض - الكتابة من موقع العدم - دار الغرب للنشر والتوزيع ص 286
- 15- الرجع نفسه ص 295
- 16- ينظر محمود نسيم - فجوة الحضارة ص 151 / 153 .
- 17- محمد تحريشي-أدوات النص (دراسة) -اتحاد كتاب العرب ص 89 .
- 18- هشام شرابي -المتفقون العرب والغرب -دار النهار ط2. 1987 ص 38/37.
- 19- محمد تحريشي-أدوات النص (دراسة) -اتحاد كتاب العرب ص 90
- 20- علي حرب - مداخلات نقدية / دار الحداثة 1985 - ص 16
- 21 - عبد الله الغزامي ،تأنيث القصيدة و القارئ المختلف ،الدار البيضاء /المغرب ط1/1992م ص 128/127 .
- 22 - عبد المالك مرتاض ، النص من أين و إلى أين ص 55 .
- 23 - محمد الكبسي ، في النهضة والحداثة ص 124 .
- 24- عبد العزيز حمودة -المرايا المقعرة - نحو نظرية نقدية عربية ،سلسلة عالم المعرفة العدد 272 ،المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب،الكويت 2001
- ص 42
- 25 - علي حرب - مداخلات نقدية - ص 26
- 26- عبد العزيز حمودة - المرايا المقعرة - ص 486